لقاء كل مساء ..

قصة بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

رسالة (١) من م. الى س.

عزيزتي س.

كما اردت ، والححت ، تريننى اكتب اليك .

في رسالتك الاخيرة ، واللواتي قبلها ، طلبت مني جوابا ... جوابا باي ثمن . واذا كان سكوتي يعني تعلقي ببقية من مقتضيات اللياقة حيالك ، فانك بالحاحك قد دفعتني الى ان اسير في كلبيتي الى غايتها ... او ان الامر بالعكس ، فلانني لم استطع ان اسير بالكلبية الى غايتها اضطررت الى ان اجيبك فامزق ما اردت ان استبقيه من مظاهر اللياقة بيني وبينك . لا بيني وبينك فحسب ، بل بيني وبين كل امراة ... ومهما يكن من الامر فها انا يا عزيزتي ، وكما تشائين ، اجيبك ... وبصراحة .

ما الذي حدث بيننا ؟ ما الذي حدث لي ولك ؟ انها القصة الازلية ، قصة ادم وحواء . انها قصة الرجل والمراة ، كما مرت على ملايين ملايين الناس من ذكر وانثى قبلنا . وانت تريدين ، كملايين من مثيلاتك قبلك ، تفسيرا لما حدث . هكذا تظنين ، والحقيقة انك تريدين تبريرا لما حدث ، لا تفسيرا . وملايين من امثالي قبلي آثروا ، في مثل موقفي منك ، السكوت كما سكت انا طويلا ، او انهم كذبوا . فهل تطمعين مني انا وحدي ان اقول ، وان اصدق فيما اقول ؟ هل تطمعين ؟ حسنا ، اذن فسأصدقك القول . لا تظني اني سأفعل هذا حبا بالصدق ذاته ، ولا رغبة مني في ايلامك ، فانت تعرفين انني لست بالسادي الطباع ، وانما لاني اكتشفت ليلة تركتك ، اخر ليلة ، حقيقة الدوافع التي دفعتني الى ان افعل ما فعلت ، لذلك فاني اجد لذةكبيرة في التحدث عما اكتشفته . في تلك الليلة اكتشفت لم احببتك ونعمت بك ، ولم تصرفت معك التصرف الذي سميته انت في رسائلك اضطهادا وتعذيبا . سأقص عليك يا عزيزتي ، وانت عزيزة علي حقا ، كل اكتشافاتي وابرر لك كل تصرفاتي .. كما اردت والححت ...

انت مدرسة فلسفة . او انك ، قبل ان يحتويك القصر ، وتسعى اليك السيارة الفارهة ، وتملأ وقتك حفلات الكوكتيل وحملات التبرعات لجمعيات المعوزين ، كنت تهيئين نفسك لتكوني مدرسة فلسفة . ربما كنت اذن ادرى مني بتلك الطرق التي يتبعها المحللون النفسيون لاكتشاف اسباب الانحرافات السلوكية ودوافع الميول الشاذة ، وباساليب تطبيق تلك الطرق . اما انا فان معلوماتي عن التحليل النفسي لا تتعدى ما قرأته في الروايات ، او رأيته في افلام السينما ، عن الديوان الذي يستلقي عليه المريض ، المريض نفسيا ، مسترخيا ، يقص على طبيبه ذكرياته المبعدة في القدم ، الى ان يكتشف هذا دافع تلذذ مريضه بتعذيب صبيان الحارة في حادثة قديمة لقطة خمشت كفه حين كان في الثالثة من عمره ... او يكتشف سبب ضعفه الجنسي ، ضعف المريض ، فيما رسب في اعماق نفسه ، منذ الطفولة الاولى ، من منظر فاجأ فيه خالة له عارية عريا فاضحا وقبيحا ...

نعم ، هذه كل معلوماتي عن التحليل النفسي : الديوان الطويل ، والمريض المستلقي ، والنور الخافت ، والذكريات المتتابعة . امور كنت اظنها لا ترد الا في صفحات الكتب او على الشاشة الفضية ، ولكني تبينت انه يمكنها ان ترد في حياة كل انسان ، وفي حياتي انا بالذات كذلك . فعلى ديوان طويل ، واطىء ، وفي ضوء خافت ، اكتشفت انا منبع القلق القديم في نفسي ، منبع الظمأ الذي لم يرتو والغلة التي لم تنقع والسلوك الذي حيرك انت . قد تسألين اي عيادة نفسانية تلك التي ترددت عليها وما اسم محللي النفسي . ستدهشين اذن اذا قلت لك اني اكتشفت نفسي على ديوان في منزلك ، الديوان الطويل الواطىء ذي المسند الجانبي المقوس ، الذي اقتنيته لانك تبدين ، اذا ما استلقيت عليه ، امام اعين صديقاتك واصدقاء زوجك ، مشبهة مدام ريكاميه في الصور التي خلدها فيها فنانو القرن التاسع عشر . ذلك هو الديوان . اما محللي النفسي ، الذي اثار ذكرياتي البعيدة في مكامنها ووضع اصبعه على جرحي القديم ، فهو انت يا عزيزتي ...

هل تذكرين اخر مرة ؟ كان ذلك الديوان يحتوينا ، انت وانا . كل ما كان على جسدك كان غلالتك السوداء والقصيرة ، المطرزة حواشيها بالدنتيلة ، تكشف عن كمال تكوينك ، ان في شفافيتها عما تلف من مفاتن جسدك ، او في انحسارها عما لا تستره من مفاتنك . ابقيت تلك الغلالة لانه كان قد مضى بيننا الزمن الذي كنت لا اطيق انا فيه ، ولا تطيقين انت ، حتى نسيجا كنسيجها العنكبوتي . رأسي كان على صدرك ، ويدك كانت تعبث بخصلة من شعري تمسحين بها صفحة عنقك ثم تتركينها لتلتوي على جبيني . قلت لي فجأة :

– في رأسك شعرة بيضاء ، انها ليست مرنة كالاخريات ، بل هي قاسية ، واقفة كأنها تصرخ . اتدري ماذا تقول ؟ انها تقول : تمتع بشبابك ! تمتع بشبابك يا حبيبي ...

قلت هذا وضحكت . ثم عدت الى العبث بشعري بانامالك المنعمة الرخصة . كان عطرك القوي الساحر لا يزال يفعمني وحرارة جسدك لا تزال تسري الي ، ولكني شعرت في تلك اللحظة بقشعريرة برد تتسرب الى جسدي فيقف لها جلدي ... لفحت وجهي فجأة ريح باردة وملأت انفي رائحة مالحة ، رائحة ماء البحر التي تغمر سطح الباخرة... ورن في سمعي ، بعيدا عنك ، وعن الديوان الواطىء الطويل في البهو الخافت النور ، صوت الدكتور يانابولوس يقول جملة واحدة تنعكس على اعماق وجداني فتردد تلك الاعماق اصداءها متشابكة ومتداخلة :

– تمتع بشبابك ... تمتع بشبابك يا عزيزي ، ليت لي شبابك !

– ٢ –

من هو الدكتور يانابولوس ؟

لقد كان في الباخرة التي ركبتها ، مبتعدا للمرة الاولى عن بلادي ، طبيبها . لم اعرف انه طبيب الباخرة الا عند ظهر اليوم الثاني

(١) هذه الرسالة مكتوبة في الاصل باسلوب مطرد ومرسل . وقد تصرف الناشر بتقسيمها ، وبتجزئتها الى فقرات ، وباضافة بعض علامات التنقيط عليها . وفيما عدا ذلك فان كل ما فيها مطابق لنسخة الاصل ، حتى في بعض ما تحتويه من اخطاء تاريخية او جغرافية في القسم المروي على لسان الدكتور يانابولوس .

من اقلاعنا ، حين رأيته يخرج من قمرة كتب عليها بالاحرف اليونانية كلمة « ياتروس » ، قد ازدحمت رفوفها بالادوات الطبية والقناني .

وفي فترة الليلتين السالفتين والنهار بينهما كنت اعجب من هـذا الضابط المسن ، وهو في بزته الكحلية المزينة اكمامها باشرطة من القصب ، في ملازمته لكرسيه على سطح المركب ، يتأمل في الافق البعيد حيث يلتقي البحر بالسماء . ولكن كثرة المصابين بالدوار بين الركاب هي التي جعلته يترك كرسيه ، ليدخل قمرته ويخرج منها ، متثاقلا ، في كل مرة ، ثم يعود الى الاستلقاء على كرسيه الثابت موجها الى المدى البعيد نظراته الساهمة .

وكان دوار البحر قد مر بي مرورا عابرا ، وان كان قاسيا ، في الليلة الفائتة ، فكافحته بأن كنت اعود الى الاكل كلما افرغت ما في معدتي بالتقيؤ ، حتى صلح حالي . وكنت بهذا واحدا من القلائل من ركاب الدرجة الثانية الذين ظلوا يمشون على ارجلهم في اليوم الثاني من بعد مغادرتنا بيروت . وحين حميت الشمس ، اضطجعت على كرسي طويل ، شيز لونغ ، اسندته الى جدار المشى على سطح الباخرة ، حذاء كرسي الطبيب ، منتظرا خروجه من حجرته ، ومعتزما في قرارة نفسي أن اجد وسيلة ما لمحادثته . عاد الطبيب بعد هنيهة فالقى بنفسه على كرسيه ، دون أن يلقي علي نظرة ، بل مادا بصره الى الافق. فجمعت اطراف جرأتي وقلت ، بالفرنسية ، بصوت عال وحاد :

ـ الباخرة مملوءة بالمصابين بالدوار ، وهذا يجعل مهمتك شاقة... اليس كذلك يا دكتور ؟

فادار رأسه الي ببطء ، وثبت في نظرته قليلا كأنما ادهشه ابتدائي له بالكلام . ولم يلبث حتى بدت في عينيه الزرقاوين ومضة خاطفة، وارتسمت على كل محياه ، ليس على شفتيه فقط ، ابتسامة انيسة ، وقال :

ـ هو كذلك ... ولكنها مهمتي .

وسكت ، الا انه ظل ينظر الي بعينيه الزرقاوين الصافيتين .

كان وجهه مدورا وموردا ، قد هدلت السنون ، ولا بد من انه في طريقه الى الستين منها ، وجنتيه وضاعفت الطيات تحت ذقنه ، كما انها كورت جسمه فبدا في بدانته اقرب الى القصر منه الى الطول .

ولكن نظرة عينيه ، حينما ابتسم ، كانت نظرة فتية . واستأنف كلامه فقال:

ـ وانت ، الم يصبك الدوار ؟

اجبته : ـ ليس كثيرا ، وقد استطعت تحمله فلم ازعجك .

قال : ـ هذا يعني ان نفسك قوية مثل جسمك . وليس كل الناس هكذا .

وادار رأسه صارفا نظره الى نقطة بعيدة امامه . وبالرغم من ان لهجته كانت قليلة الحماس فقد تلقيت كلامه كأنه ثناء اعجبتني به نفسي . فعدت اليه بالحديث بقولي :

ـ لا اشك في انك تلاقي في عملك مشقة كبيرة وتتحمل مسؤوليات كثيرة ، لكني اعتقد انه يظل في نظرك اجمل عمل في الدنيا .

قال : ـ اي عمل ؟

قلت : ـ عمل طبيب الباخرة ...

فسكت قليلا قبل ان يسألني سؤالا لم افهم مغزاه اول الامر، قال:

ـ هل تحب قراءة القصص ؟

قلت : ـ كثيرا .

قال : ـ حسنا ، خبرني كيف تتصور حياة طبيب الباخرة ؟

فترددت وبحثت في خاطري عن الصورة التي يرتسم لي فيها طبيب الباخرة من خلال ما قرأته من قصص الرحلات وما تخيلته من الوان الحياة في اسفار البحار العالية والمحيطات المترامية . ثم لم البث حتى انطلقت في تعبيري عن شعوري بأن كون المرء طبيبا يعني في ذاته انه يخوض في كل يوم مغامرة ، بل مغامرات ، في اجساد الناس ونفوسهم . اما طبيب الباخرة فهو يجمع الى مغامرات المعنى مغامرات المادة ، في عوالم غريبة عجيبة ، متجددة كل يوم ، من مسافرين تنقلهم الباخرة الى ارجاء الدنيا القصية ، ومن موانىء متباعدة متباينة السكان والاقاليم ، ومن احداث مرتقبة او مفاجئة غنية بالمواقف والمشاعر.

وحينما توقفت عن الكلام في انتظار تعليق الطبيب على تصوراتي قال ، دون ان يغير من اتجاه نظرته البعيدة :

ـ جميل ما قلته حقا . وماذا عن النساء ؟

فانطلقت مني ضحكة قصيرة مستحية .فاضاف :

ـ نعم ، ماذا عن النساء في حياة طبيب الباخرة ؟ ...

قلت : ـ قرأت ذات مرة ان قلوب البحارة كقلوب الملفوف ،اوراق عديدة متراكبة ، تنزع منها ورقة فتبدو تحتها ورقات ... وان لكل منهم ، في كل ميناء ، فتاة تنتظره . ولا ادري كم يصدق هذا على قلوب اطباء البواخر !

فقام محدثي عن كرسيه وخطا في المشى حتى اسند ظهره الى الحاجز الذي يحمي سطح السفينة ، ملتفتا الي بوجهه المدور المورد ، وقال :

ـ تعجبني تصوراتك ايها الفتى . لماذا انت ذاهب الى اوروبا ؟ للدراسة ربما ...

قلت : ـ لدراسة الحياة يا سيدي ... اذا صح هذا . قبل ان اشارك ابي في ادارة اعماله الواسعة طلبت منه ان يسمح لي بالتجوال اشهرا في بلاد لا اعرفها . ولاني احب هذا تراني معجبا بحياة اطباء السفن .

وفي هذه الاثناء برزت ليليان من وراء احد زوارق النجاة التي كانت على سطح السفينة ، وهي تركض ،ولم ادر بها الا حين هوت بكفها على نقرتي بلطمة حادة ثم فرت مسرعة . فعدوت خلفها متسلقا وراءها السلالم مطاردا لها بين السيارات التي كانت مثبتة بالحبال بحواجز السفينة ، حتى ظفرت بها بين حبلين من تلك الحبال . وجررتها بيدي الى حيث كان الدكتور يانابولوس واقفا ، وقلت له وانا الهث ، وكذلك رفيقتي :

ـ ارجو ان تقبل اعتذار ليليان عني ، فقد اضطرتني الى تركك بصورة غير لبقة .

فامتلأت ملامح الطبيب بالابتسامة الانيسة من جديد ، وقال:

ـ لا عليك . الانسة افرنسية ، اليس كذلك ؟

قالت ليليان :

ـ نعم ، من باليه آموري . لقد وعدني هذا السيد ان يرافقني الى الاكروبول حين تقف السفينة في البيرة . ولكن ها قد قاربنا الوصول الى المرفأ وهو لا يزال يضايقك بحديثه . اهي امراضه التي لا تنتهي تلك التي كان يحدثك عنها يا سيدي ؟

قال الطبيب وهو ينظر اليها نظرة ذات معنى :

ـ ليس به من مرض الا حب الحياة ، وهو مرض جميل . انه محظوظ يا انسة .

فابتسمت ليليان وقالت :

ـ شكرا ... الا ترافقنا الى الاكروبول ؟

فغابت الابتسامة عن وجه الطبيب ، وتراءى لي ان حسرة خفيفة قد مرت من بين شفتيه وهو يقول :

ـ اثينا بلدي يا عزيزتي ، وكان يجب ان اكون انا الداعي لكما اليها . ولكني لا اريد ان اطفل بشيخوختي على شبابكما . انهم يقدمون في المطعم طعام الضحى قبل مغادرة السفينة، الستما جائعين؟

فانفلتت ليليان نحو السلم المنحدر الى قاعة الطعام ، بينما اتجه الي الطبيب بالحديث قائلا :

ـ ما احسن ما بدأت به دراستك الحياة يا صديقي ... ليت لي شبابك !

ـ ٣ ـ

بعد ان اقلعت السفينة من البيرة ، رقيت سطحها باحثا عن صاحبي الطبيب فوجدته في مقعده المفرد ، يتطلع الى امام ، دوما . وكانت السفينة في اتجاهها نحو مضيق كورنثيا تسير محاذية الارض اليونانية،

غير مبتعدة عنها . فكان الشاطىء الجبلي يلوح لاعيننا وقد تعلقت على سفحه المنازل المتفرقة ، نقاطا بيضاء في رقاع خضراء من العشب او رمادية موردة بلون الصخر الذي ضرجته بالحمرة اشعة الشمس المنحدرة نحو المغيب . وكان جزء الممر من سطح الباخرة الذي وضع فيه الطبيب مقعده منعزلا ، قد تباعد عنه الركاب فخيم عليه السكون،لا تسمع فيه الا غمغمة الالات المنبعثة من اعماق المركب ، وحفيف الامواج في اصطدامها بجوانبه المعدنية . فلم اجد لائقا ان افسد هذا السكون بسؤال اوجهه الى الطبيب او حديث اجاذبه اياه . لذا فقد اسندت ظهري الى جدار القمرة التي كانت ورائي ، ليس بعيدا عن كرسي صاحبي ، ورحت مثله ارسل طرفي الى الشاطىء المناوح اريح نظري على مناظره الجميلة المتبدلة في طبيعتها وفي الوانها .

الا ان الدكتور يانابولوس بدأني هو بالكلام . وقد ظننت في البدء انه ، من فرط استغراقه في النظر الى بعيد ، لم ينتبه الى قدومي ووقوفي الى جواره . ولكنه التفت الي فجأة وقال ، وكأنه كان يتم حديث الصباح ، وكأننا لم نفترق :

ـ ليس كل البحارة مغامرين ، ولا كل اطباء البواخر ...

فتطلعت اليه فلاحت لي على شفتيه الابتسامة التي تضيء وجهه وتحيل الركود في ملامحه المسنة الى فتاء وصبى . واردف :

ـ لماذا انت واقف هكذا ؟ هات ذلك الكرسي . ما دامت هذه اول سفرة لك فسترى الان منظرا لن تنسى سحره طول عمرك .

وامتثلت لاقتراحه ، فجررت الكرسي الطويل الى جانبه بينما استمر هو في حديثه متطلعاً الى سلسلة الجبال التي كانت تصل ، في السماحل ، ما بين زرقة البحر وزرقة السماء :

ـ نعم ، قد يكون البحر مهربا من المغامرة ، لا طريقا اليها ، كما كان عندي مثلا . قد اخيب ظنك في ما اقوله لك . ولكنك في اول الحياة ، وستعلم يوما ما ،اذا لم يكن مني فمن غيري ، او على حساب نفسك ان الواقع في هذه الحياة كثيرا ما يخيب الظنون والامال. كيف رأيت الاكروبول ؟

وكان سؤالا مختلفا عن حديثه الذي تطرق فيه الى الحديث عن نفسه ، كأنما اراد بالقائه علي ان يقطع خيط ذلك الحديث . فرحت ابدي له اعجابي بروعة ما تبقى من هذه القلعة الاغريقية ، وبتناسق هندستها وضخامة اعمدتها ، وبجمال اطلالتها على اثينا الحديثة.قال:

ـ وصديقتك ، هل كانت مسرورة من اصطحابك لها الى تلك الخرائب ؟

قلت :

ـ تقصد ليليان ؟ انها ليست صديقة ، بل رفيقة سفر . هي ، كما قالت لك هذا الصباح ، احدى فتيات باليه آموري الذي كان يقدم برامجه الراقصة في بيروت وربما في غيرها من بلاد شرقنا طوال اشهر كثيرة . وفتيات ذلك الباليه هن الان في طريقهن الى اوروبا حيث يتوزعن على بلدانهن المتفرقة . لقد عرفتها على ظهر السفينة .

فعاد الطبيب الى سؤاله قائلا :

ـ وهل اعجبها الاكروبول ؟

قلت : ـ كانت تصيح اعجابا في كل زاوية من زواياه ، وعلى آثار السور ، وبين اعمدة البارتينون . الواقع اني اكاد ان لا افهم تعلق اغلب الناس ، والاوروبيين منهم بصورة خاصة ، بالخرائب والاثار القديمة الى هذه الدرجة . لعل قلة فهمي تلك ترجع الى كون الاثار القديمة تملأ ارض بلادنا : جرش والبتراء وتدمر وبعلبك ، والخرائب المتناثرة على قمم جبالنا وفي قلب صحارينا . ان من يرى تلك البقايا العجيبة لا يجد في الاكروبول ما يستدعي صيحات الاعجاب . تريد الصراحة يا دكتور ؟ حينما وقفت ليليان مشيرة الى واحدة من الاساطين الضخمة التي تحمل افاريز المعبد ، وهي تدعوني الى التأمل في استواء تلك الاسطوانة ورشاقة خطوطها على ضخامتها ، كان اعجابي ينصرف لا الى عمود الحجارة الذي نحته اسلافك الامجاد بل الى قامة رفيقتي الرشيقة وجمالها الاخاذ ...

فضحك الدكتور يانابولوس برقة وقال :

ـ هذا طبيعي ... فمن هو الغبي الذي يفضل عمودا من حجارة صماء على ساق مشيقة لحسناء جميلة ؟

قلت :

ـ لا اقصد هذا ، او اني لا اعني هذا بالضبط . انما كنت اقول في نفسي ، وانا ارى صدر ليليان الفاتن يرتفع وينخفض في انفعال الدهشة ، وارى خصلات شعرها الاشقر تتطاير بفعل الانسام حول وجهها الرقيق ، وارى انسجام اعضائها وتورد بشرتها ، ان الجمال الحقيقي هو في الحياة ، في الحياة نفسها ، وان الجماد مهما كان القالب المسكوب فيه منسجما متناسقا مادة ميتة ...

فقال الدكتور يانابولوس ، وقد دبت الحرارة الى لهجته التي ظلت ، حتى الان ، فاترة على رقتها :

ـ احسنت ، احسنت . اذا كنت تعيش حياتك بهذه الروح التي تعبر عنها الفاظك فاني اغبطك ايها الفتى .

وفي الحق ، لم افهم ، في البدء ، ماذا كان محدثي يعني بقوله هذا . فقد قلت ما قلته وانا اروي المشاعر التي دارت في نفسي في زيارتي للاكروبول مع ليليان ، وببراءة . ولم ادر انني بهذا قد اعدته الى ذكريات خاصة له ، هي التي كان قد بدأ بالتطرق اليها في اول حديثه معي ، ثم تباعد عنها . وقد رأيته يعود مجددا الى التحدث عن نفسه ، اذ اردف يقول :

ـ نعم اني اغبطك . ذلك اني ... ماذا اريد ان اقول لك ؟ ... لاني لم ادرك الحقيقة البسيطة التي قلتها انت الان ، تراني امامك طبيبا لسفينة ... عبدا مسخرا ، مثقلا بالقيود ، مشدودا الى قاع هذا المركب ...

وكان الشاطىء في تلك الاثناء ، عن يميننا ، يقترب من السفينة شيئا فشيئا ، حتى لكانت تبدو لنا معالم صخوره ، صخرة صخرة،

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

صدر حديثا :

الظمأ والينبوع

رواية من تأليف

فاضل السباعي

٢٥٠ ق. ل — دار الاداب

لقاء كل مساء

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٠ ـ

بوضوح . ومثله كان شاطىء اخر يقترب من جانب السفينة الايسر. ذلك اننا كنا قد قاربنا ان ندخل في مضيق كورنثيا الذي شق في صخور الجبال التي كانت تكون برزخ كورنثيا القديم . قلت للدكتور يانابولوس:

ـ ألى هذه الدرجة انت ناقم يا دكتور على حياتك كطبيب هنا ؟ فانطلقت من الطبيب ضحكة قصيرة وقال :

ـ ناقم ؟ ليست هذه هي الكلمة التي تعبر عن حقيقة شعـــوري حيال حياتي كطبيب على ظهر سفينة .

وسكت قليلا ثم اطلق حسرة قصيرة قبل ان يقول بلهجة اكثر جدا :

ـ اننا نتعلم في المدارس تجارب الناس الذين عاشوا قبلنـا ، مكثفة ملخصة ، لنوفر على انفسنا معاناة تلك التجارب بانفسنا . فـي خلال دراستي الطب في جامعة فينا وفي مستشفيات اثينا ، مثـلا ، كنت اتلقى تجارب مئات الاجيال من البشر ، من عهد ابقراط ، وعهـود اطباء الفراعنة وقدماء الصينيين والهنود قبله ، مجمعة في بضعة الاف من الصفحات . وبذلك وفرت على نفسي عناء الركض وراء كل دقيـق في جسم الانسان ووراء كل مرض في اعضائه . ليت لنا ان نتلقى، في عالم النفس وعالم العاطفة ، تلك التجارب في خلاصات مكثفة ، مثـل خلاصات العلوم ... اذن لوفرنا على انفسنا الاكتواء بالجمر والتقلب في لهب نار القلوب ...

وفي هذه المرة المرة ابتسمت انا قائلا له :

ـ اين ترى توجد خلاصات لتجارب العاطفية التي تتكلم عنهـا يا سيدي ؟ فاني ، لقلة تجربتي ، احوج الناس اليها ...

فلم تتغير لهجة الدكتور يانابولوس ، بل استمر في جديتـــه متابعا كلامه :

ـ وهل تظنني ، حتى في هذه السن ، اقل حاجة منك الى تجارب غيري ؟ اما تجربتي انا فاني على استعداد ان اضعها بكل سرور تحـت تصرف غيري . وهل حديثي معك الان الا امر من هذا القبيل ؟ .. نعم ان لي تجربة ... تجربة بدأت في غابة من غابات فينا ، وانتهت ...

وسكت محدثي فجأة ثم ضحك وقال :

ـ هل سمعت بمايرلنغ ؟

قلت متسائلا :

ـ مـاذا ؟

قال : ـ يبدو من ملامحك ان هذا الاسم لا يعني عندك شيئا . ولكنه في ذات يوم كان ملء افواه البشر واسماعهم . مايرلنغ ! ... بل انه كان نقطة الانطلاق لمآسي ملايين البشر ، في الحرب العـالمية الاولـــى ....

وسكت قليلا وهو يتطلع الى الشاطىء الذي قرب منا حتى اصبحنا نرى العشب النامي في الشقوق بين صخوره ، ثم اردف يقول :

ـ ليس بعيدا من فينا ، في قلب غابات جميلة فاتنة ، تقع قـرية مايرلنغ . في هذه القرية ، وفي صباح احد الايام في اواخر القـرن الماضي ، وجدت جثة الارشيدوق رودولف وجثة عشيقته ، في المأساة التي عرفت بمأساة مايرلنغ . كـان الارشيدوق رودولف ولي عهـد الامبراطورية النمسوية ، فاقلق مصرعه الفجائي في مايرلنغ توازن اوروبا التي كانت ورانات العروش فيها خيطا اساسيا في نسج المـــالك والاقطار . لا تظن مما اقوله ان مأساة مايرلنغ قد مستني بشيء ،فليس في عروقي قطرة واحدة من الدم الازرق ، وليس لي اية علاقة باصحاب العروش . لا ... بل لعلني مخطىء في هذا . فلولا ان مايرلنغ كانت مسرحا لتلك المأساة لما اصبحت هذه القرية الصغيرة ، من بين عشرات مثلها في الغابات المحيطة بالعاصمة النمسوية ، مسترادا للسائحين ، ومحجا للعشاق ، ولما قصدتها في ذات يوم في زمرة من اصدقائي ، وبينهم كان صديقي البولوني ستانيسلاس شامسكي ، وكانت شقيقته ايدا شامسكا ...

ونهض الدكتور يانابولوس من كرسيه وانحنى فوق حاجز اسفينة ناظرا الى مقدمتها ، واشار الي قائلا :

ـ تعال وتأمل ... لقد بدأنا بالدخول في مضيق كورنثيا .

وكنت قد الفت من صاحبي الطبيب طريقته في الحديث ، حـين يقطعه بوقفات وجمل بعيدة عن الموضوع الذي كان يتحدث به . فقمت مطاوعا ، وانحنيت مثله اتطلع الى مقدمة سفينتنا التي اخذت بالتباطؤ في سيرها . ورأيت المضيق امامنا وقد تقارب شاطئاه حتى بدا لنـا كشريط من الماء بين جدارين من الصخر ماثلين ، مستويين وعاليين . وخيل الي ان هذا الشريط كان من الضيق بحيث انه لن يتسع لسفينتنا في مرورها . ولكن الباخرة كانت تتقدم نحوه بهدوء ، وقد خفت ضجة الالات في اعماقها ، وخفتت ضجة الركاب على سطحها وهم يترقبون ، مثلنا ، دخولها في الشريط المحصور بين جداري الصخر العاليين ...

وظللنا ، انا وصاحبي الطبيب ، برهة ساكتين في تطلعنا الى مدخل المضيق الذي كان يقترب منا ، او بالاحرى اننا كنا نحن الذين نقترب منه ، والى امواج البحر التي كانت تلطم جانبي مركبنا بوداعة كانها كانت تتحبب اليه ، ثم لا تلبث حتى تتراجع وقد علا الزبد زرقتهـا المخضرة . وانفتل الدكتور يانابولوس عائدا الى كرسيه ، فتبعته وفي نفسي ترقب ، وشوق ، الى ان يعاود الحديث عن تجربته التي بـدأت في تلك القرية التي سماها في غابات فينا ...

لم يطل ترقبي ، فقد عاد الدكتور يانابولوس الى الكلام قائلا :

ـ ايدا شامسكا ... لقد كانت الفتاة التي تتصورها احلامنا مثالا للحسن والفتنة ، نحن ابناء هذا المتوسط الذي احرقت شمسه بشراتنا والهبت عواطفنا . كانت بولونية في اصلها النبيل ، ابنة الكـونت سيغموند شامسكي ، ولكن عروقها لم تكن تخلو من دماء بارونات بحـر البلطيق التوتونيين ، فكان جمالها مزيجا ، بل خلاصة ، من جمـال السلاف والجرمان : ذهبية الشعر الى صفرة ، صافية البشرة الـى شحوب ، دقيقة الملامح ، طويلة القامة . ومثل جمالها كانت خصالهـا ، في رقة العاطفة ونبل السلوك ومرح الصبا . وقد احاط اسم اسرتهـا العريق كل ذلك بهالة فاتنة ... فلا تنس اننا كنا حينذاك في اعقـاب الحرب العالمية الاولى يوم كان للاسماء العريقة سحرها وقدسيتها . فهل تعجب اذا كنت قد اخذت بكل تلك الفتنة ، وانا شاب في ميعـة الصبا اتردد مع ستانيسلاس ، شقيق ايدا ، على ابهاء الدرس وقاعات مستشفى فينا العام صباحا ، واقضي اغلب امسياتي الى قربها ، بحجـة الدرس في شقة اخيها ، او اصطحبها انا وستانيسلاس الى قـاعات الموسيقى او ملتقيات الشبيبة في عاصمة النمسا ! نعم ... لقد غرقت فيهوى ايدا الى اذني ... اما هي ؟

وسكت محدثي قليلا ، واغمض عينيه قبل أن يجيب على السؤال الذي القاه هو بقوله :

ـ لقد احبتني ايدا ، هكذا خيل الي ... بل ان الحقيقة كانت هكذا . وما كان لها الا ان تحبني مثلما احببتها . لقد كنت في عينها سليل سكان الالب والبارناس من شعراء وحكماء والهة ، وقد جعلت مني زمالتي لشقيقها رفيقا دائما لها ، احمل اليها باقات الورد واراقصها واقرأ عليها ، في العربة التي تطوف بنا بين جنبات غرينتسيغ وكوبنزل من ضواحي فينا ، اشعار هايني وغوته : الى اين كان يقودنا ذلـك الحب ؟ لم نكن نقدر في بدء تعارفنا الى اي مدى كنا سننجرف به ، او ، على الاصح ، لم اكن ادري انا ... فقد عرفت في نهاية الصيف ، وكانت قد مرت شهور ستة على اول لقاء لي بايدا ، بأن عليها ان تعـود الى وارسو ، حيث كان ينتظرها وارث اسرة مثل اسرتها ، ليعقد قـرانه عليها . لقد كانت زيارتها لاخيها في فينا ، حيث كان يدرس الطب ، جزءا من برنامج رحلة جرت فتيات الاسرة الارستوقراطية على القيـام بها قبل ان يضمهن قصر الزوج ذو الابراج العالية ، وضياعه المنبسطة

في سهول بوزنانيا او سيليزيا العليا . عرفت هذا ، بتفصيل وصراحة ، في مايرلنغ ، حيث قادتنا نزهاتنا البعيدة الى القصر الذي يبعد اربعين كيلومترا عن عاصمة النمسا ، وحيث وجدت نفسي نهبا لاحساسين متباينين كل التباين وكلاهما عنيف جارف . اهناك تباين اكبر من التباين بين الغبطة التي تملأ كل جوانحك حين تعرف فجأة بانك محبوب مثلما انت محب ، وبكل القوة التي تحب بها ، وبين الالم المزق الذي تحس به حين تعرف ان حبك الكبير حب يائس ، مسدودة امامه كل السبل وميتة فيه كل الامال ؟ لقد كنت انا نهب هذين الاحساسين المتعارضين في مايرلنغ ، حين باحت لي ايدا بانها تحبني ، وبأنها ما كانت تبوح لي بهذا الحب لولا انها راحلة غدا الى حيث لن يكون لها عودة ، لا الى فيينا ولا الى اثينا ، الا بعد ان تتزوج من البارون فلانسكي او فلانوف او فلانيتش ... لست ادري ما اسمه ومن يكون الا انه اخر فرد من سلالة اسرة سلافية مهترئة ، وانه سيحول بيني وبين ايدا الى الابد ...

وكان صوت الدكتور يانابولوس قد اخذ طابعا حادا حين ما بلغ كلامه هذه الجملة ، الا ان هذا الطابع لم يلبث حتى اختفى واكتسى صوته رنة حالمة وهو يتابع كلامه بقوله :

— تصور نفسك مكاني في اصيل ذلك اليوم من ايام الخريف ، تحت شجرة سامقة في زاوية من حديقة القصر الذي عاش فيه رودولف وماري فتشير ليلتهما الاخيرة ، ليلة الحب العنيف الذي وقفت الاعراف والتقاليد امامه فحطمها بالموت . كان طيف العاشقين وحديث مأساتهما يملآن نفسي حين كانت ايدا شامسكا تضع مأساة حبنا نحن ، انا وهي ، امام عيني بكلمات قليلة تتسلل بينها لحظات الصمت وتتخللها الدموع فتجعل منها حديثا مسهبا يمزق القلب . وبعد ان اجهزت حبيبتي بكلماتها القلائل على امالي التي تفتحت للحظة قصيرة ، سألتني هل سأظل احبها بالرغم عن كل ما يفرق بيننا وما سيفصل واحدنا عن الاخر ؟ سألتني هل سأظل اذكرها حين اترك هذه البلاد لاعيش في بلدي في عيادة انيقة تتردد عليها حسان اثينا ، او في مستشفى تؤمه نخبة الاسر الارستوقراطية تبحث بين قاعاته عن الشفاء لابنائها وبناتها ؟ قلت لايدا حينئذ اني لن اتخذ لنفسي عيادة في حي من احياء اثينا ولن اعمل طبيبا في اي من مستشفياتها ، ولكني سأجوب البحار طبيبا ، على ظهر بواخر الشركة التي تملك اسرتي اغلب اسهمها ، واني سأظل دوما ذاكرا لها . قلت لها انه كان لي هوى نفس ، هو هذه المهنة الانسانية التي اعددت نفسي لها ، وهوى قلب هو هي ، ايدا . وانه بعد ان حرم قلبي من هواه فان نفسي لم يعد يهمها ان تجد هواها في اي مكان في مهب الرياح الاربع ، اذ لم تعد تربطها الى مكان بعينه من الارض رابطة . بأي اخلاص واية حرارة قلت تلك الكلمات في ذلك الاصيل في زاوية حديقة قصر مايرلنغ ؟ ... كنت الفظ كلماتي وانا اتطلع الى عيني ايدا الواسعتين في محياها الصافي ، تحت جبينها الذي كان في استدارته وتناسقه يذكرني بجبين القديسة آنا التي رسمها ليوناردو دافنشي مع العذراء ... هل رأيت تلك اللوحة ؟ ينبغي ان تراها لتعلم كم كان ساحرا جبين ايدا الذي كنت اتطلع عليه كأني كنت اقسم به على اني لن انساها في اي اوقيانوس تمخر عبابه السفينة التي سأكون طبيبها . امسكت ايدا بيدي حينذاك وقالت : اذا كنت تحبني يا نيكولاس ، فاذكرني كل ليلة ولو لحظة قصيرة ، دقيقة واحدة تكفيني منك ... اجعل بيننا موعدا في تمام الساعة العاشرة والنصف من كل مساء ... انا سأتذكرك اينما كنت في تلك اللحظة تماما ، اينما كنت سأتذكرك : في الاوبرا ، في قاعة الطعام في قصر زوجي فيوارسو، في مزرعة الاسرة على حدود بوميرانيا ، وسأتذكرك حتى بين ذراعي زوجي اذا كنت بينهما في تلك الدقيقة . تذكرني انت كذلك ... تطلع الى السماء على ظهر سفينتك وتأمل في اي نجم من نجومها وناديني باسمي... نعم ، نادني في تمام الساعة العاشرة والنصف من كل مساء ...

وهنا سكت الدكتور يانابولوس بلهجة من انهى حكايته ، او بلهجة من لا يريد ان يروي من حوادثها شيئا بعد الذي رواه . وكانت سفينتنا في تلك الاونة قد توسطت قناة كورنثيا الضيقة ، تمخر في مياهها الراكدة في سكون غريب . فنهضت من مقعدي ، واعتمدت على حاجز الباخرة ، ورحت اتشاغل بالتطلع الى جدار المضيق القائم كالعمودي ، قريبا تكاد تمسه رؤوس الاصابع لو مد الانسان ذراعه ، وبالتأمل في مياه البحر القاتمة في الظل الكثيف لشمس اخر النهار ، الا ما كان من زبد يتطاير رشاشه في المسافة القصيرة بين ادنى جدار السفينة وصخور المضيق . واذ مددت بصري الى امام بدا لي اننا كنا لا نزال بعيدين عن ان نبلغ اخر القناة ، فعدت الى مقعدي الى جوار الطبيب الذي كان لا يزال في صمته ، قد ارخى ذراعيه واصابع كفيه الوردية المصفارة على المسندين ، ونظره ثابت على جدار المضيق الذي كان ينسحب الى وراء ، بصورة بطيئة ومنتظمة ، بتقدم السفينة الى امام . ولم اتلفظ بأي كلمة استحث بها الدكتور يانابولوس على متابعة حديثه، على شدة رغبتي في ان يفعل . فقد كنت اشعر ، في قرارة نفسي ، بغرابة ان ينفض طبيب مجرب ، في الستين من عمره ، بمكنونات صدره وحكاياته الحميمة على مسامع مسافر مجهول ، شاب غر مثلي ، لم يلتق به الا منذ ليلة واحدة . لذا فقد كنت اخشى ان افسد بكلمة واحدة ، انطق بها من غير تقدير ، نظام العوامل المتعددة التي تضافرت فأثارت في نفس الدكتور يانابولوس ، في ساعة المغيب هذه ، رغبته في ان ينفث ما بصدره الى اي انسان يكون بقربه ، وقد كنت انا ذلك الانسان . لقد ظللت ساكتا ، ولعل سكوتي كان دعوة مغرية للطبيب الى ان يعود الى حديثه ، اكثر من الحاحي عليه بذلك لو اني الححت . فقد بدا لي من تململ الدكتور يانابولوس في جلسته ، ومن تحلل النظرة الثابتة في عينيه ، انه سيعاود الكلام . بل انه فتح فمه ليفعل لولا ان برز الينا من فوهة السلم القريب بحار تقدم الى الطبيب فحياه ، ثم قال له باليونانية جملة جعلته يقوم مبادرا من كرسيه . وقبل ان يترك المكان التفت الي كالمعتذر وقال :

— تمتع بمنظر الافق والبحر دونه حين تخرج السفينة من المضيق، انه منظر لا ينسى ... والى اللقاء .

— ٤ —

لم التق بالدكتور يانابولوس منفردا في ذلك المساء ولا في اليوم التالي ولا في صباح اليوم الذي بعده . كنت اراه عن بعد على مائدة ضباط الباخرة ، في قاعة طعام الدرجة الاولى ، من خلال نوافذ القاعة، مكبا على صحنه ، قليل الالتفات الى من حوله ، في حين كان قبطان السفينة وضباطها ، ولا سيما الشبان منهم ، يثرثرون ويضحكون مع الركاب على الموائد المجاورة او مع بعض الفاتنات المدعوات الى مائدة القبطان . وكنت اتعمد المرور ، في اوقات مختلفة ، امام الحجرة التي تحمل كلمة « يانروس » بالاحرف اليونانية فأجد بابها مغلقا ، او اجده مفتوحا ولا احد في الحجرة . اما المر فلم يكن يقف فيه احد ، حتى الكرسي الذي كان يقتعده الطبيب كان مرفوعا من مكانه . وكنت في اعماق نفسي مشوقا الى ان اسمع تتمة القصة التي بدأها علي الدكتور يانابولوس . هل كانت قصة ؟ في بعض اللحظات ، حين كنت استعيد لنفسي ما رواه طبيب السفينة ونحن نخترق مضيق كورنثيا فأجده مجرد وقائع مبتذلة مما تجري به الحياة في كل آن وكل صقع . في تلك اللحظات كنت اشك في ان الدكتور يانابولوس قد روى لي حقا جزءا من قصة حياته . انه مجرد هذر اراد الطبيب ان يزجي بهالوقت مع هذا المسافر الذي كان ينظر اليه بعينين ملؤهما الفضول والدهشة لمجرد كونه طبيبا لسفينة ... طبيب باخرة حياته كلها مغامرات وفي جعبته الاف الاسرار والحكايات . ولكني حين كنت استعيد لهجة الطبيب الجادة ، وذلك التباين بين وقاره كرجل محنك وبين انطلاقهفي رواية تفاصيل حياته الشخصية لمسافر غريب ، شاب غر ، كنت ادرك انه لا بد ان تكون لقصة الدكتور يانابولوس نهاية تبرر اندفاعه في رواية بدايتها . تلك النهاية كنت مشوقا الى ان اسمعها من فم صاحبي الطبيب ، ولذا كنت اتحين لحظة القاه فيها على انفراد فلا اظفر بها . وفيما عدا التردد على المر امام غرفة طبيب الباخرة ، والبحث عن

طريقة اصطنع فيها لقاء طبيعيا مع الدكتور يانابولوس ، كنت اقضي وقتي بين قراءة ما اصطحبته من كتب من بيروت وبين ملاحقة ليليان بين مماشي السفينة وطبقاتها وعلى سلالها .

كانت ليليان ، بين فتيات باليه آموري ، اصغرهن سنا واكثرهن مرحا . وحين كانت رفيقاتها يقضين الوقت حول مائدة ورق اللعب في صالون الدرجة الثانية او على اعلى سطح من الباخرة مضطجعات ، شبه عاريات ، يتزودن من اشعة شمس المتوسط سمرة لايام القر والثلج الشاحب في اوروبا ، كانت ليليان تأخذ بيدي راكضة بين طبقات الباخرة المختلفة بحثا عن لعبة بينغ بونغ او عن حلقة من الشبان يعزفون على الاكورديون ويغنون في احدى زوايا سطح الدرجة الثالثة، او لنلعب امام زمرة من البحارة المتعطلين المتجمعين في اقصى المركب بعض فصول الشعوذة التي التقطتها من سحرة الفرق الليلية في المرابع التي كانت ترقص فيها مع باليه آموري . وفي الليل،بعد العشاء ، كنا نصعد ، انا وليليان ، على ظهر السفينة ، في مؤخرتها ، فننضم الى الازواج الذين كانوا يتنزهون في ظلال زوارق النجاة او الصناديق الضخمة المشحونة يتسامرون ويتناجون في همس او يتعانقون في صمت وكانت ليليان تحب ان تستند الى حاجز الباخرة في اقصى المؤخرة تتأمل ، في ظلام الليل ، خطي الزبد الابيض اللذين تتركهما الباخرة متباعدين وراءها ، او تقلب نظرها بين انجم الليل اللامعة في السماء فوقنا ، او في الانوار الخافتة الخافقة في شواطىء الجزر البعيدة التي كانت سفينتنا تمر في مستواها . في تلك الاثناء كانت ليليان تلزم الصمت ، على غير عادتها ، وترفع رأسها لنسيم الليل الذي كان يهب على وجهها باردا عليلا ويرسل شعرها متموجا حول عنقها الطويل المتلع . وكنت حينذاك اجد الفرصة الوحيدة التي تسكن فيها ليليان الى مداعبتي ، فاطوق خصرها بذراعي ، او اميل رأسها على كتفي لاغمر وجهي في شعرها المرسل او اسير بشفتي على خدها وئيدا حتى انتهي الى شفتيها فالتقطهما في قبلة ناعمة ، لذيذة على قصرها...

لان ليليان كانت دوما تهرب بشفتيها من قبلاتي ، مفضلة ان تمرغ وجهها على صدري كانها كانت تبحث باذنها عن قلبي لتسمع دقاته وتتأكد من وجوده !

الا ان تلك اللحظات الشائقة التي كنت اقضيها مع ليليان ، ضاما قدها المشيق الي ، لم تكن تبعد عن ذهني رنين بعض جمل الدكتور يانابولوس ولا بعض تفاصيل قصته التي قصها علي . ففي تلك اللحظات نفسها كانت تتسرب الى خاطري حكاية اللحظة ، بل الدقيقة التي واعدته فيها حبيبته اليونانية ان تلتقي به ، بالروح ، لقاء صامتا اينما كان هو وكانت هي . فكنت ، وانا اتأمل مع صديقتي راقصة باليه آموري تقلبات الامواج الكامدة على جانبي السفينة اتخيل الليالي التي كان فيها يقف الدكتور نيكولاس يانابولوس على ظهر السفينة رافعا رأسه الى نجوم السماء التي تلمع فوق المتوسط او فوق اي بحر من بحار اسيا البعيدة او المحيطات المترامية ، بينما تتمثل لنفسه صورة الحبيبة ذات العينين الزرقاوين الواسعتين والجبين الذي يشبه جبين قديسات ليوناردو دافنشي . نرى كم من الامسيات في كم من الرحلات في اي عدد من السنين المتتابعة ظل الدكتور يانابولوس امينا على ذلك الموعد ، موعد الدقيقة الاولى بعد العاشرة والنصف التي ينصرف فيها بجسمه وروحه الى لقاء طيف الحبيبة البعيدة التي تتملص للقائه من عناق زوجها ، او من لوج في اوبرا وارسو او من ثرثرات العجائز او تحبب الشبان في حفل استقبال في قصر احد الكونتات العريقي النسب ؟ هذه الدقيقة ، دقيقة اللقاء الروحي ، كانت اشد ما رواه الطبيب بروزا في ذاكرتي ، لا ادري لماذا ، ربما لانه وقف في قصته عندها ... الا اني كنت في شوق الى ان يحدثني عن تلك الدقيقة بالذات وعن شعوره حين ينصرف الى الخلوة فيها في كل امسية . كنت اريد ان استفهم هل لحق الابتذال بهذه الدقيقة لطول ما تردد على ميعاده فيها ، ام انها ظلت ، ولا زالت شائقة طافحة بذكرياته وملتهبة بنار حبه ؟

في اليوم الثالث حين كانت الباخرة تحاذي ساحل شبه الجزيرة الايطالية الجنوبي في طريقها الى مضيق مسينا ، عدت الى سطح الباخرة ، قريبا من منتصف الليلة ، بعد ان ودعتني ليليان بقبلة ارسلتها الي برؤوس اصابعها في الهواء وهي تتجه الى جناح النساء في الدرجة الثانية ، فشاهدت في الممر المؤدي الى حجرة الطبيب شبح صاحبي الدكتور يانابولوس معتمدا على حاجز السطح يتطلع الى انوار الشاطىء البعيد التي كانت تلوح كنقاط مضيئة دقيقة ، تلوح تارة وتختفي اخرى. اقتربت منه بهدوء والقيت عليه تحية المساء ، فقال لي دون ان يلتفت الي :

ـ اهذا انت ؟ ... لم ارك منذ دهر .

قلت :

ـ هذا من سوء حظي يا سيدي ... لقد جئت الى هنا في مرات عديدة فلم القك .

قال :

ـ سنمر بين رأس الحذاء الايطالي وصقلية قبل الفجر . من المؤسف انك لا تستطيع ان ترى بركان اتنا بسبب الظلام . هل قضيت وقتا جميلا على السطح ؟

فحدست انه لا بد من كونه قد رآني وليليان متخاصرين في مؤخرة المركب . واردت ان اربط بين هذا وبين لقائه في الخيال بحبيبته فقلت:

ـ ان ليليان تحب ان تتأمل في النجوم وهي تهرب وراء السفينة في الظلام . يبدو ان كل الفتيات كذلك . لقد حدثتني يا دكتور عن صديقتك التي طلبت منك ان تفكر بها وانت تتأمل في النجوم ، لحظة في كل ليلة .

فسمعته يطلق ضحكة قصيرة ثم يقول :

ـ هل حدثتك بهذا حقا ؟ .. وهل صدقت ذلك الحديث ؟

فخطر لي حينئذ ان فكرتي بان كل ما رواه كان حكاية لا اساس لها من الواقع ، كانت صحيحة . وادركتني بذلك خيبة امل ممزوجة بنقمة على نفسي اني كنت ساذجا الى درجة اصدق فيها ببساطة كل ما

مؤلفات سيمون دو بوفوار

* * *

ق.ل

* المثقفون (جزءان) ١٤٠٠
* مغامرة الانسان ١٥٠
* الوجودية وحكمة الشعوب ١٧٥
* نحو اخلاق وجودية ٢٢٥

ترجمة جورج طرابيشي

* بريجيت باردو وآفة لوليتا ١٥٠

منشورات دار الاداب

يلقى على مسمعي ، وابني على كل حكاية ملفقة تروى لي عالما من الوهم تتعلق نفسي به كأنه واقع ثابت . غير ان الدكتور يانابولوس لم يترك لي مجالا الى ان استمر في تفريغ نفسي ، اذ انه عاد الى الكلام، بلهجة جادة هذه المرة ، وقال :

ـ حسنا . لا تظن اني قصصت عليك رواية ملفقة ، وان كنت في بعض الاحيان اتمنى لو انها كانت كذلك ... ليس كل الاحيان مع ذلك ... فما ادري كيف كانت تكون حياتي لو لم التق بايدا شامسكا، ولو لم افترق عنها بوعد ان نلتقي في كل ليلة في الساعة العاشرة والنصف ... لدقيقة واحدة على الاقل . دقيقة واحدة فيها ستون ثانية ، وكل ثانية تعج باللحظات ، تلتقي اثناءها بروح تحبها وترى فيها، وانت مغمض العينين ، عينين زرقاوين صافيتين تتطلعان اليك بحنان ، او نسمع فيها ، وانت تحدق بنجمة خافقة الضوء في السماء فوقك ، خفوق قلب صغير يحبك ! .. يا صاحبي الصغير ، انا لست قديسا ، ولم اكن في يوم من الايام راهبا ، لا ولا شاعرا ... ولقد عرفت فتيات جميلات كثيرات مثل صاحبتك ليليان ، يفضن مرحا وانوثة . ولكن صدقني ان ليست هناك غبطة مثل غبطة ان تترك في سريرها غانية تدعي المرض لتطلعك على مفاتن جسدها الجميل ، لان لك على السطح موعدا مع طيف حبيب . او مثل أن تتملص من بين ذراعي مرافقتك الشابة الجميلة التي تلصق خدها بخدك في رقصة تانغو حالمة ، لانك تريد ان ترى نور جبين حبيبتك في نور نجمة تلوح بين السحب في ليلة مثقلة الرياح بالمطر ...

وسكت الدكتور يانابولوس ، فسكت اتملى معه ، ولنفسي ، تلك الغبطة التي تكلم عنها . ما اجمل حديثه عن تلك العاطفة ! .. في الحق ان هذا هو الحديث الذي كنت اتوق الى ان استمع اليه حين كنت اتحين الفرص للقاء صاحبي الطبيب بين ممرات السفينة وقمراتها. وما اجمله من حب ! ... لقد خيل الي ان الدكتور يانابولوس قادر على ان يستمر الليلة بطولها في التحدث عن السعادة التي غمره بها حبه الجميل المستحيل وحبيبته النائية الدانية . ووجدتني اسائل نفسي من جديد : اتراه لا يزال الى اليوم ينفرد بنفسه على سطح السفينة دقيقة في تمام الساعة العاشرة والنصف ؟ لا بد ان حبيبته التي يهواها قد اصبحت عجوزا ، جدة ذات اولاد واحفاد ، منذ تركها .. او لعلها لقيت حتفها بحادث عارض او مرض ملم ، او باجتياح جيوش النازية لبلادها ، او انها هاجرت فارة حين احتلت مزارع زوجها تعاونيات الفلاحين في اعقاب جيوش ستالين . ان بداية قصة الطبيب كانت بعد الحرب العالمية ، ومنذ ذلك الحين تغير وجه الارض مرات ومرات ، فاين اصبح عهد الحبيبين بعد كل تلك التغيرات ؟

تجرأت وقلت ، وانا اعبر عن شعوري الصحيح :

ـ هذه قصة تشبه حكايات العشاق الاوائل ، وما كنت اظن انها توجد في هذه الايام . يا لها من سعادة نفسية تلك التي فزت بها يا سيدي ، وانت لها اهل ...

فسكت محدثي فترة طويلة كان اثناءها ثابت الجسم في كرسيه، مغمض العينين ، فتصورت انه كان في هذه الفترة يستعيد بينه وبين نفسه كل السعادة التي كان يغمره بها حبه الفريد . وحين عاد الى الكلام كان الهدوء قد حل محل الحماس الذي اتسم به اخر حديثه . وقال وهو يكمل تعليقي على قصته :

ـ نعم ، انها قصة تشبه حكايات العشاق الاوائل . وكان يمكن ان تستمر كذلك : حب سعيد ، السعادة فيه ناشئة بانه لا غاية منه ولا نهاية له ... لولا انه حضرت ، بعد ستة عشر عاما من رؤيتي الاخيرة لايدا مؤتمرا لطب البحار في تريستا ، واني قصدت من تريستا فيينا فالتقيت هناك بحبيبة فؤادي ...

هتفت مشوقا :

ـ اذن فقد التقيتما مرة اخرى ؟!

قال برزانة :

ـ نعم ، يا صاحبي الصغير ، لقد التقينا . لقيتها في مقصف فندق فخم يقع قرب قصر شونبرن ، في ظاهر العاصمة النمسوية. ستسألني كيف كانت . لقد كانت جميلة جميلة . نعم ، ان عينيها كان قد اكمد لونهما ظل ثقيل لاجفانها حولهما ، الا ان جبينها ، جبين القديسة آن ، كان في نقائه وحسن استدارته كأن السنين التي فرقت بيننا لم تمر عليه .

قلت : ـ وهل عرفتك ؟

قال : ـ نعم ، لقد عرفتني .

قال هذا بلهجة قاطعة كأنه كان ينوي ان يختم به حديثه .وسكت فترة خطر لي فيها انه عاد الى طريقته في تقطيع الحديث ، وانه سيهجر حكايته ليعدد لي اسماء قرى الساحل الصقلي من مضيق مسينا. ولكني سمعته يطلق زفرة كانها حسرة مكتومة ، ثم يعود الى الكلام بقوله:

ـ نعم لقد عرفتني ايدا . مالت الى الشاب الذي كان يصغرها سنا ، المخنث الذي كان يرافقها ... يساقيها الشمبانيا ويراقصها الرومبا ... مالت اليه وقالت : « هذا عزيزنا يانابولوس ، الدكتور يانابولوس ، صديق ستانيسلاس وصديقي ... لقد عرفت من ستانيسلاس انك صرت طبيبا بحارا كما كنت تحب ، فأي ريح بحرية هوجاء القت بك الى قلب القارة ايها العزيز » . وبعد ان عرفتني بمرافقها الذي كانت تسميه انتونيو ، تابعت اسئلتها قائلة : « هل تذكر يوم افترقنا في مايرلنغ ؟ اراهن انك نسيت ذلك الوعد الذي طلبت منك ان تعدني به . كنا يومذاك اطفالا . وعد ان تفكر بي كل ليلة في الساعة العاشرة ، ام لعلها الحادية عشرة ؟ تفكر بي دقيقة او دقيقتين اكون في اثنائهما افكر بك كذلك فنلتقي هكذا بالروح ، وعلى البعد.. الم اقل لك اننا كنا طفلين ، او مراهقين مسحورين بالرومنتيكية والاخيلة العاطفية ؟! ... » . نعم هذا ما قالته ايدا لصاحبها انتونيو ولي . قالته ببساطة ، وظلت تهذر به وبمثله من الكلام حتى كشفت لي عن ان كل ما بنيت عليه حياتي ، حتى تلك اللحظة ، كان زيفا في زيف . وذلك الموعد نفسه ! .. عرفت منها انه لم يكن فكرة عاشقة ولهى ،

صدر حديثا :

أعياد

مجموعة قصص

بقلم

عبد الله نيازي

٢٥٠ ق . ل
دار الاداب

بل كان احدى الفكر المبتذلة التي كانت تزخر بها روايات الغـرام الرخيصة . كل رفيقاتها المراهقات في المدرسة كان لهن مع عشاقهن مثل ذلك الموعد . لا بد من انك تدرك اي صدمة اصبت بها من اقوالها . وحين جربت ان احول بينها وبين ان تجهز على روحـي المترنحة تحت طعنات كلماتها المتتالية ، مذكرا اياها بمتعة اللقـاء الروحي لحبيبين يتجهان بكل مشاعرهما الى امر واحد في اللحظة ذاتها ، قالت لي : ((اوه ايها البحار الحبيب ... انت تعلم ، لانـك بحار ، بان لقاء مثل الذي تواعدنا عليه لا يمكن ان يكون . تصور انـي كنت في وارسو وان سفينتك كانت تمخر قرب جزائر الباهاما ، وانـي فكرت بك وانا اتطلع الى نجمة لامعة في السماء ، فهل تظن من الممكـن ان تلتقي نظراتي بنظراتك على النجم ؟ ان ساعة يدك انئذ ستشير الـى الخامسة مساء او الرابعة ، لا ادري تماما ، فلن يكون هناك اي نجـم تنظر اليه ... اليس هذا ما تقوله خطوط الطول المرسومة على الخرائط في حجرة كل قبطان باخرة في انحاء العالم ؟ ... لقد تواعدنا على اللقاء كعشاق يا طبيبي العزيز ، الا ان الفلكيين والجغرافيين وعلماء الفيزياء تدخلوا فيما بيننا فافسدوا علينا المواعيد ! ...)) . هذا ، او اشيـاء تشابه هذا ، ما قالته ايدا قبل ان تطلق في وجهي ضحكة مخمورة حطمت قهقهاتها الماجنة كل ما بقي من احلام نفسي واوهام ذكرياتي...

وصمت محدثي في هذه المرة صمتا طويلا عذرته فيه . بل انـي لم انتظر ان يعود الى الحديث ، ولا كانت بي حاجة الى ان يعـود ، فقد كان صمته بليغا ومعبرا عما يدور في مطاوي نفسه . الا ان صوتـه عاد الى الارتفاع ، متخذا لهجة مجردة من المرارة التي روى بها قصـة لقائه بحبيبته ايدا . قال :

– ليس اجمل من الحب . صدقني . والذين يبكون على قبـر روميو وجولييت ، او الذين بكوا حين رأوا جولييت تنتحر حينما ظنت حبيبها ميتا وهو نائم ، ثم رأوه يقتل نفسه لانه وجدها قد انتحـرت لوجدها به ، هؤلاء لا يدركون ان موت هذين الحبيبين كان بالنسبـة لشخصيهما قمة السعادة . كم كان هينا وعذبا لعاشق مثلي ان يلقـى الموت في حبه لايدا ؟! .. ان اظل عزبا بلا زوجة ومحروما من الولد ؟ ان الاف البحارة يموتون مثلي عزابا ، ولكن حبي كان يجنبني من ان انتهي بحياتي مثلهم بين حانات الموانىء ومواخيرها . ان افقد النجاح وبعد الصيت والثروة التي بلغها زملائي من اطباء اليابسة ؟ ذلك اهون الامور على نفسي ، فقد ملأ حبي جوانحي بشعور من الاكتفاء اصبح معه كل مطامح الناس ومطامعهم كالقش اليابس في نظر نفسي . كل تلـك امور كانت هينة عندي ولا قيمة لها ... فقد كان لي في كل مساء لقاء مع حبيبة تتلاشى كل المحاسن امام محاسنها . لا شيء اجمل مـن الحب يا صديقي الفتى ، اقول لك هذا مقالة عارف . ولكن ماذا تفعـل اذا اكتشفت فجأة ، من حديث قصير يلقى على مسامعك بين كأس مـن الشمبانيا ورأس صبي مخنث ، انك فقدت الحب ؟ ... انك اضعـت عمرك ، وفقدت الاسرة والمجد والمال ، وعشت محروما من كل لذة في سبيل الحب .. وانه لم يكن هناك حب ؟! لهذا تمنيت يا صـاحبي الصغير ، منذ يومين ، ان يكون لي شبابك . انها اماني عجوز نادم على ما اضاع به صباه . فتمتع بشبابك ... تمتع بشبابك يا عزيزي ...

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

– ٥ –

ايتها العزيزة س.

فارقت ليليان في المحطة في باريس . لم اودعها ولم آخذ عنوانها، فقد كان اخوها اليافع في انتظارها ، وكانت هي مشغولة بان تشير اليه بقلم الباركر الذي حملته له هدية من بيروت . وفي باريس رأيـت الشانزليزيه والفولي بيرجير وبيغال ، وزرت اللوفر . وفي اللوفـر وقفت طويلا امام لوحة ليوناردو دافنشي التي تمثل العذراء والطفل وسانت آن ، فتصورت كيف كان جبين ايدا ابنة الكونت سيغمـوند شامسكي ، مدورا نقيا يضفي على وجهها الذكي سمات النبل العريق. وفي اللوفر لقيت ماريان الالمانية ، وعرفت بعدها جانين وسوزان وارما ونيكول وسواهن كثيرات ، في باريس وفي غير باريس . وعرفت فـي بلدي وفي بلادك فلانة وفلانة ممن تعرفين ولا تعرفين . لقد كنت اريـد ان اتمتع بشبابي كما نصحني الدكتور يانابولوس . هل اكذب عليك ام افخر بانتصاراتي عندك ؟ ... لقد تمتعت بشبابي .. او انه خيـل الي ذلك . ولكني نهم لا اشبع وظامىء لا ارتوي ، وقـادني نهمي وظمأي اليك ...

يا عزيزتي ان لك جبينا كجبين القديسة آن . لم اقل لك هـذا قبل الان ، ولكن ماذا يكون تجاوبك لو قلته لك ؟ ربما ضحكت منـي ورأيته ثناء تافها . ليس جبينك وحده الجميل ، فانت فاتنة جسمـا وروحا . ظننت اني معك لن ارفع عيني الى امرأة اخرى ، لانك فـاتنة جسما وروحا ... ربما ليس لهذا وحده ، بل لان جبينك يشبه جبين القديسة آن . ظننت ، ولكن ...

ولكن لو ان امرأة استطاعت ان تستأثر بي لكنت انت . كل مـن يقول ان الرجل يركض وراء الانثى في المرأة يهرف بما لا يعرف . انه يركض وراء نفسه ، وراء تمام نفسه التي يشعر بانها لم تكتمل . وهذا هو الحب . هل هناك امرأة تستطيع ان تتم نفس رجل ؟ هنـا المسألة . لقد وجد صاحبي الدكتور يانابولوس تمام نفسه في ايدا الجميلة ، الحلوة ، التي لم تعرف الحياة بعد ولم تعرف حقيقة نفسها كامرأة . وكان الدكتور يانابولوس راضيا مكتفيا مرتويا من الحياة بالحب الذي اضفى عليه غبطة دقيقة واحدة من اللقاء في كل ليلة .لقاء بالروح ولكنه هو اللقاء الصحيح . اما انا فاني لم اعرف حبا كهذا ، لم اعرف هذا الحب وان كنت عرفت نساء كثيرات ظننت اني احبهن... عرفت المحبوبات ، ولم اعرف الحب .

يا عزيزتي س. ، ستقولين متى ادركت كل هذا ؟ اين ادركتـه وكيف ؟ .. لقد ادركته على ديوانك الذي يشبه الديوان الذي تضطجع عليه مدام ريكاميه في لوحة دافيد – واللوحة في اللوفر كذلك ، كما قد تعلمين – . ادركته وانا اضمك الي ، انثى كاملة مدركة قيمـة جمالها ومسؤولية افعالها . وحين قلت لي : ((تمتع بشبابك)) ، كانت هذه هي الجملة – المفتاح لادراكي . في كل النساء اللواتي ركضـت وراءهن حتى سقطن في حضني كنت ابحث عن الحب الذي وجـده يانابولوس قبلي وسعد به . ويانابولوس الذي كفر بالحب لان حبيبه كان دون مستوى اوهامه ، لم يدر اي جحيم هي الحياة اذا امتـلات بالحبيبات واقفرت من الحب ...

وداعا يا س. ! اني اركض وراء فراشة اسمها الحب . الورود التي تحط عليها تذبل ، وعبيرها يتلاشى . وهي ، اي الورود ، تسليني يوما وليلة ، ولكني لا البث حتى اتركها لاعدو وراء الفراشـة . يانابولوس ، يانابولوس ! ... اغفر لايدا شامسكا خيانتها ، فانهـا اعطتك ستة عشر عاما من غبطة ما زلت منذ سنين طويلة ابحث عنهـا فلا اجد الا المتعة التي تعقبها مرارة في الفم وخواء في الروح ...

وداعا يا س. ! قبلة لثغرك الريان قبل الوداع ، واخرى حانية حادبة على جبينك الفاتن ،

مـن

م.

عبد السلام العجيلي